

الفصل السادس

المرأة في شعر العشماوي

المرأة في شعر العشماوي

وماذا عن المرأة في شعر العشماوي؟

ممّا لاشك فيه أنّ لأمه أثراً كبيراً في نظرته للمرأة؛ إذ جسّدت له الفضيلة والطهر والعفاف والحب والوفاء والإخلاص والإيثار والتضحية، وإنكار الذات، فالمرأة في نظره هي الأمومة في أجلّ معانيها، ولعلّ قصائده لأمه، وعن أمه في ديوانه "إلى حواء"، وقصة "بائعة الريحان" تعطينا صورة واضحة لمعنى الأمومة لدى هذا الشاعر:

بائعة الريحان

من يا ترى بائعة الريحان

امرأة تخمشها

مخالب التسعين

في وجهها المجدد الجبين

إشارة إلى تعاقب السنين

وإن كان الشاعر يريد بقصة بائعة الريحان أن يعبر عن أمه، وعمّاً حلّ بقريته من طغيان مظاهر المدنية الحديثة التي أفقدتها هدوءها ونقاءها وصفاءها، فلقد استطاع من خلالها أن يصوّر لنا صمود بائعة الريحان "الأم" أم شريفة أمام مغريات الزمن بعد فقدانها لزوجها، إذ صارت بائعة للريحان في قرية "النشامرة" تبيع في سوق السبت "الشيخ" و"الريحان"، وربما تبيع "قرن

موز وربما قرنين " امرأة تصارع الهرم، فبعد وفاته بدأت رحلة العناء، وصارت "بائعة الريحان"^(١)، فالأمومة في بائعة الريحان تعني الجهاد والكفاح والتعب وإنكار الذات.

والمرأة في نظره هي الزوجة، والزوجة تعني له المودة والسكن والرحمة، كما جاء في الذكر الحكيم (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة)

وهاهو يخاطب رفيقة عمره في قصيدة "رحلة العمر" قائلاً:

من مـعـانـيـك اسـتـقـي أـلـحـانـي

فـاـهـتـنـي يا نـديـة الأـحـزان

افـرـشـي هـذه الطـريق وفـاء

فـطـريـقي مـفـرـوشة بالـحنـان

ظـلـلي عُـشـنا الجـديـد بـروح الـ

حـب حـتـى نـعـيش في اطمـئـنـان

رـحـلة العـمـر يا رـفـيـقة عـمـري

زادها الحـب والرـضـا والتـفـانـي

أنتِ عـزفُ الرـضـا عـلى وتر القـلـ

ب ولحن الوفاء في وجداني

(١) ديوان بائعة الريحان.

أنتِ مَعْنَى من الطَهارة يسمو

بفؤادي عن مغريات الزمان^(١)

والمرأة هي الأخت التي يحرص على شرفها، ويقدم لها النصيح لتسير على

منهج الله، ولا تتبع أهواء الشيطان، فيقول لها:

أختاه يفقد هذا الكون معناه

لولا رضانا بما يقضي به الله

أختاه يا شمعة للعطف موقدة

ويا نشيداً فم الإخلاص غناه

إليك أرسلت أشعاري مفردة

والأفق صاف ولحن الشعر تيّاه

إذا وصلنا برب الكون أنفـسنا

فما الذي في حياة الناس نخشاه^(١)

ويقول في قصيدة " أختي" يقول:

أختي .. وفي أخلاقك

لكن يا أختي كرامة

أختي .. ولففتيات في

درب الهدى أغلى سلامة

(١) ديوان إلى حواء.

أختي... وأنت فتاة غضة

نُستذلُّ به الشهامة

كـونـي ..أجل من الحـيا

ة إذا جرت فيها السامة

أختي... وفي أحشاء دنـ

يانا وبئس بهما مجون

نعم الفتاة المستقيمة

لا تحيط بهما الظنون

تسمو بصـدق عـفافها

ولرمز عزتها تصون^(١)

ثمَّ يقول مبيناً مصير من تسيروها اللذات؛ إذ لا تجني إلاَّ العذاب والحزن

والندم:

أختي .وكم حمقاء أغر

قها اللذات المهينة

فغدت..وكانت حرة

لقـيـود لذتها رهينة

(١) المصدر السابق.

تهفو إلى حريّة
فتصير تائهة سجيّنة
وتسوقها أوهاهما
فهي المعذبة الحزينة
حريّة الإنسان الأّ
يسستبد به هواه
يرقى بصدق يقينه
وتسير ثابتة خُطاه
أختاه لـوذّي بالذي
ما خاب يوماً من دعاه
وتمسكي بهداه فال
إشراق يا أختي هداه

أمّا في قصيدة "ضدان" فإنّه يبين من خلال حوار بينه وبين أخت مسلمة أنّ هناك ازدواجية في سلوك بعض نساء الإسلام؛ إذ يجمعن بين ضدّين لا يلتقيان، وهما الإسلام والفسق أو الانحراف فيبدر منهن السفور والتبرج والابتذال وهو لا يليق بامرأة تدين بدين الهدى، والقصيدة من ثمانية عشر بيتاً فأورد مقتطفات منها تبين المضمون والهدف: إذ التقى الشاعر بفتاة حسناء فسألها:

من أين أنت فإنَّ بي شغفناً
وإليك نفسي - لهفة - تعدو
قالت وفي أجفانها كحل
يفري وفي كلماتها جد
عربية حريتي جعلت
مني فتاة مالهانند
أتمشى بقاع الأرض ما سنحت
لي فرصة بالنفس أعتد
عربية فسألت: مسلمة؟
قالت: نعم ولخالقي الحمد
فسألتها، والنفس حائرة
والنار في قلبي لها وقد
من أين هذا الزي؟ ما عرفت
أرض الحجاز، ولا رأيت نجد
هذا التبذل يا محدثي
سهم من الإلحاد مرتد
فتنمَّرت ثمَّ أنثنت صافناً
ولسانها لسبابها عبء

قالت: أنا بالنفس واثقة
حرיתי دون الهوى سدا
فأجبتها - والحزن يعصف بي
أخشى بأن يتناثر العقدا
ضدّان يا أختاه ما اجتمعا
دين الهدى والفسق والصد
والله ما أزرى بأمتنا
إلّا أزواج ماله حـد^(١)

وهذه حقيقة فإنَّ سبب ما حلَّ بأمّتنا من ضعف وخوار، وما أصابها من تحلل وانحدار هذه الإزدواجية فمعظمنا مسلم بالتبعية، ولكنه لم يسلك سلوك الإسلام، ولم يتخلق بأخلاقه، وقد استطاع الشاعر العشماوي - بهذه القصيدة - أن يُطوِّع الشعر لمعالجة قضية من أخطر قضايا الانحراف في مجتمعنا الإسلامي، وهي سفور المرأة المسلمة وتبرجها وتبذلها مبيناً أنَّ المسلم الحق ينبغي أن يبتعد عن هذا الفسق والتبذل.

كما كان صادقاً في تصوير مرارته وعمق حزنه وآلامه لهذا الوضع، ونلمس هذا الصدق، ونشعر به في قوله:

فسسألتها والنفس حائرة
والنار في قلبي لها وقد

(١) المصدر السابق.

فأجبتُها - والحزن يعصف بي

أخشى أن يتناثر العقد

وكان صادقاً أيضاً في تصويره غرور بعض النساء، واعتدادهن بحريتهن تلك الحرية الوجودية المطلقة التي لا ضابط لها ولا رابط، فأباح ما حرّمه الله، إذ عبّر عنها بقوله:

فتنمّرتُ ثمّ انتشيت صلفاً

ولسانها لسبابها عبد

قالت: أنا بالنفس واثقة

حُرّيتي دون الهوى سد

فقصيدة "ضدان" قصيدة بليغة أوجزت حال المرأة المسلمة المعاصرة، وبيّنت سبب ضعف أمتنا الإسلامية وخوارها في أبيات قليلة، فالشاعر هنا أوجز وأصلح وأجاد.

وهكذا يتبين لنا أنّ الشاعر العشماوي قد نظر إلى المرأة نظرة الإسلام لها، وهي نظرة تكريم وتقدير واحترام، فهي إنسانة حرة كريمة طاهرة عفيفة، وحرص في شعره على المحافظة على إنسانيتها وكرامتها وعفافها، بل حثها على الحفاظ على طهرها وكرامتها، ونلمس حرصه هذا في قوله في قصيدة "كأس الهوى":

يا ورة ما استطعتُ ألمسها

أخشى بأن يفسدها اللمس

للطهر في أعــــــــــــــــمــــــــــــــــا قنا ألق

يســــــــــــــــمــــــــــــــــو بنا وبحر صنا يأســــــــــــــــو^(١)

ونجده يقول في قصيدة " قراءة في وجه الصمت":

وهل يكون الحب ذا قــــــــــــــــيــــــــــــــــمة

إذا خــــــــــــــــلا من لذة الطهــــــــــــــــر^(٢)

هنا قد جعل للطهر لذة، وأية لذة تفوق هذه الشهوة، فلذة الطهر تكسب صاحبها رضا الله وحبه، كما تكسبه احترامه لنفسه واحترام الآخرين له حقاً فإنَّ الحب لا قيمة له إذا كان لا يظلمه الطهر والديانة؛ إذ بدونهما لا يعدو عن كونه ضرباً من العهر

- حبُّ فإنَّ مســــــــــــــــتــــــــــــــــتهُ كفُّ الخنا

فقد غدا ضرباً من العُــــــــــــــــهــــــــــــــــر^(٣)

ويقول في قصيدة أخرى " بعض أوراقي":

ولا تحسبي أنَّ حبي سوف يجعلني

أقــــــــــــــــرُّ نفسي على عصيان خــــــــــــــــلاقي^(٤)

فهو يقر هنا أنَّ حبه طاهر عفيف، ولن يرضى لنفسه أن يجره إلى عصيان خالقه، أي أنَّ الحب الذي سيجره إلى المعصية لا يقره ولا يرضى به، فإنَّ قوة إيمانه ستجعله يتغلب على الضعف البشري، فأبي حب يجر إلى

(٢) المصدر السابق.

(١) المصدر السابق.

(٤) المصدر السابق.

(٢) المصدر السابق.

المعصية، ومسته كف الخنا، فلن يستسلم له، وهنا يبرز في مدى قوة إيمان هذا الشاعر الذي يصبر عن المعصية.

ولا تحسبي أن حبي سوف يجعلني

نفسي على عصيان خلاقي

ما أسماه من معنى، وما أروعها، وما أجمله، وما أبلغه!

ويستمر الشاعر في إبداعه الذي مصدره قوة إيمانه، فيقول في قصيدة "

سرج الأمل ":

إن كان بُعد المرء عن إيمانه

داءً فإن القُربَ منه علاجٌ^(١)

وهكذا نجد أن الإيمان قد هدَّب عواطف هذا الشاعر، وارتقى بها إلى مراتب عليا من الطهر والعفاف، فجاء تعبيره الشعري عنها فيضاً من الإبداع، ترتاح له الأنفُس، وتطرب لسماعه الأذان، وتشرح له الصدور، فيصلح الفاسد، ويُقوم المعوج.

ومن خلال ما سبق يتبين لنا مدى عمق أثر أم الشاعر العشماوي على شخصيته، ونظرتَه للمرأة، فاحترامه لأمه، واحترام أمه لنفسها، وتضحيات أمه، وسمو أخلاقها وطهرها وعفافها، وقوة إيمانها، كل هذا غرس في نفس هذا الشاعر هذه العقيدة الراسخة، وهذا الإيمان الصادق القوي المتدقق، وهذا التقدير للمرأة فنظر إليها نظرة إكبار وإجلال، وجاء شعره معبراً عمماً كتبه في إهدائه لحواء ديوانه " إلى حواء "؛ إذ قال في هذا الإهداء:

(١) المصدر السابق.

(حواء في حياة آدم تعني العطاء. وما أعظم كلمة العطاء.. حواء تعني الأمومة. وما أعظم كلمة الأمومة، حواء تعني السكن والمودة والرحمة، ومن ذا الذي لا يريد السكن والمودة والرحمة؟ حواء أم له كيانه الخاص. وعطاؤها يظل عظيماً ما حافظت على ذلك الكيان هذه حواء. وهذا ديواني المتواضع "إلى حواء" (١).



(١) المصدر السابق.